من أعلام مدينة مراكش أبو الحسن الحرالي

لمحة من سيرته وقبس من شخصيته

The famous personality of the Marrakesh city, Abul-Hasan Al-Harali

A glimpse of his biography and his personality

إبراهيم وامومن*

جامعة القاضي عياض (المغرب)، b.ouamoumen@gmail.com

تاريخ الاستلام:2020/12/26 تاريخ القبول:2021/03/03 تاريخ النشر:2021/07/15

ملخص:

يعتبر أبو الحسن الحرالي من الشخصيات العلمية التي لم تنل حقها في تأريخ العلوم، مع أنه كان شمسا منيرة في سماء العلوم، بارعا في المنطق والفلسفة والرياضيات، عالي الكعب في علوم اللغة العربية وآدابها، كما كان من أهل التمكن في علوم الحديث، والسيرة، والفقه.

فمن هذا الباب أحببت أن أعرف بهذا العالم الكبير، وليس قصدي الاستيعاب، إنما هو تعريف مقتضب موجز، وكل ما سيقدم في هذه الزاوية، ما هو إلا قطرة في إناء، ولبنة في بناء.

الكلمات المفتاحية:الحرالي، الأعلام، الشخصية

Abstract

Abu Al-Hassan Al-Harali is considered one of the scientific figures who did not attain their right in the history of science, even though he was a luminous sun in the sky of science, skilled in logic, philosophy and mathematics, clunky in the sciences of Arabic language and its literature, and he was one of the masters in the sciences of hadith, biography, and jurisprudence .For these reasons i liked to make this great scholar know, and it is not my intention to comprehend, but rather a brief and concise valuation, and everything that will be presented in this corner is nothing but a drop in a vessel, and a brick in a building.

Key words: Al-Harali, flags, personality

* المؤلف المرسل

1- مقدمة:

إن من تمام البروز بمن مضى من علماء هذه الأمة وصلحائها وفضلائها، جمع أخبارهم، وتدوين سيرهم، والتعريف بآثارهم، وإبراز مكامن الغنى في تراثهم، وما قدموه للأمة من جليل الأعمال، حتى يبقى حبل الأمة ممدودا بين حاضرها وماضيها، وقد كان للمغرب والأندلس نصيب وافر من هؤلاء العلماء الذين أسهموا بعطائهم العلمي، وإبداعهم الفكري في خدمة الثقافة الإسلامية.

ولئن كان بعض هؤلاء العلماء قد وصل إلينا من تراثهم وإرثهم العلمي ما يمكننا من تكوين صورة متكاملة عن سيرهم وجهودهم العلمية، فإن قسما معتبرا من هؤلاء العلماء، لم يصل إلينا عنهم ما يعرفنا بهم معرفة ضافية ونافعة، حتى يستفاد مما عملوه، ويستكمل ما شرعوه، مما يقتضي الاستدراك الناجز عن طريق تتبع مصادر تراجمهم، وجمع ما ورد فيها من إشارات عنهم وعن أعمالهم، وكذا تتبع ما نقل من آثارهم، تفتيشا وتقميشا، حتى نستطيع الإلمام بشخصيتهم، ونتمكن من التعريف بجهودهم، ونشر محاسنهم، ونتعبد لله بحبهم، والدعاء لهم، وهذا أقل ما يمكن أن يقدم لأهل الفضل والعلم.

2- أسباب البحث:

ترجع أسباب اختيار هذا البحث إلى سببين: الأول: أن هذا العلم الكبير رغم مكانته العلمية،إلا أنه لم يصل إلينا من تراثه إلا النزر اليسير، وهي نفسها لم تصلنا إلا عن طريق الناقلين منها، فهو من الشخصيات العلمية التي لم تنل مستحقها في تأريخ العلوم، مع أنه كان شمسا منيرة في سماء العلوم، بارعا في المنطق والفلسفة والرياضيات، عالي الكعب في علوم اللغة العربية وآدابها، كما كان من أهل التمكن في علوم الحديث، والسيرة، والفقه.

والسبب الثاني يرجع إلى جهل الكثير من أبناءنا وطلبتنا لعلمائهم، وخاصة الأندلسيين منهم على وجه الخصوص، والمغاربة بوجه أخص، قد يعرفون الكثير من الشخصيات العلمية المشرقية، لكن يجهلون علماء قطرهم وبلدهم، وهذا أمر واقع، لا يكاد ينكره أحد.

فمن هذا الباب أحببت أن أعرف بهذا العلم الكبير، وليس قصدي الاستيعاب، إنما هو تعريف مقتضب موجز، وكل ما سيقدم في هذه الزاوية، ماهو إلا قطرة في إناء، ولبنة في بناء.

3- أهداف البحث:

-التعريف بعلماء الأمة، وبجهودهم العلمية، وإنتاجهم الفكري.

- ربط الباحثين بعلمائهم الأوائل، وتوطيد العلاقة بين الخلف والسلف.

- إبراز مكامن القوة في سير أعلام هذه الأمة، حتى يكونوا قدوة لمن بعدهم في الخير والعلم والصلاح.

- الوقوف على الجوانب العلمية التي حاز فيها أبو الحسن الحرالي قصب السبق من بين علماء الأمة.

منهجية البحث:

تناولت هذا البحث في محورين: المحور الأول: في التعريف بأبي الحسن الحرالي، واسمه ونسه وولادته، وكذا شيوخه وتلاميذه، ثم ثناء العلماء عليه، وانتهى هذا المحور بتاريخ وفاته. أما المحور الثاني فقد خصص للحديث عن أعماله وآثاره، وقسمت الكلام فيه إلى ثلاثة مجموعات. المجموعة الأولى تضم ثلاثة كتب، وهي

كالتالي:الإيمان التام بمحمد ﷺ.وفتيا إصلاح العمل لانتظار الأجل. ورسالة نصح عالم لمن قال ربي الله ثم استقام.

أماالمجموعة الثانية فتضم كتابين:اللمحة في معرفة الحروف بمقتضى معانيها.وتفهيم معاني الحروف.وأماالمجموعة الثالثة فتضم:سعد الواعي. وحكم: أقوال حكمية وتأملات صوفية.ثمآثاره الشعرية. ثم انتقلت إلى جهوده في علم التفسير، ومنهجه في تفسير القرآن العظيم. ثم خاتمة في نهاية البحث.

فأسأله سبحانه بمنه وكرمه أن يغفر لنا وله، ويرحمناجميعا، ويجمعنا بهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولائك رفيق، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

المحور الأول: التعريف بأبي الحسن الحرالي[1]

3-1-اسمه ونسه وولادته: هو علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم التجيبيّ، الإمام أبو الحسن الحرالّيّ،وحرالة من أعمال مرسية[2]. وهي قريبة من مُرسية، ومعنى هذه الكلمة: الحارة الصغيرة. وذلك أن حرّالة مكونة من حارة، وأداة التصغير الاسبانية. Ela. حسنة المنظر على نهر مُرسية.

قال عنه الغبريني: "الشيخ الفقيه، العالم المطلق، الزاهد الورع، بقية السلف، وقدوة الخلف، نسيج وحده..."[3].

والتجيبي نسبة إلى تجيب بنت ثوبان بن سليم، جدة التجيبيين العليا، وقد انتقلت الأسرة التجيبية إلى الأندلس أيام فتح المسلمين، ثم انتقلت إلى المغرب. إما في عصر المرابطين، أو في عصر الموحدين، حسب اختلاف المؤرخين، وذلك لما امتزجت الأمتان: الأندلسية والمغربية، على الصعيد الثقافي والاجتماعي، نتيجة للوحدة السياسية على الصعيد الرسمي [4].

وهكذا نجد أن أبا الحسن الحرالي يرجع نسبه إلى أسرة عربية عريقة جدا، انتقلت إلى الأندلس إبان الفتح الإسلامي، ثم تناسلت في الأندلس، وتكاثر أفرادها في عدة مدن، حتى غدت من أشهر الأسر العربية التي حافظت على أصلها العربي الأول، ثم انتقل بعض أفرادها إلى المغرب.

وحرالة ما كانت لتعرف لولا أبو الحسن الحراليالتجيبي، وإلى هذا يشير بعضهم قائلا:

وما شرف الأوطان إلا رجالها وإلا فلا فضل لترب على ترب

بيد أنه لا يعرف تاريخ ارتحال الحَرالّي من مرسية، كما أنه لا يعرف تاريخ ميلاده، وقد يكون السبب في ذلك راجع إلى أن الحرالي كان مغمورا، ولم يعرف إلا بعد نضجه وتمكنه من عدة علوم، ثم بعد ذلك ذاع صيته، واشتهر في الأمصار، وهذا هو الغالب في الكثير من الشخصيات العلمية القديمة، وقد يكون السبب أيضا راجع إلى أن أسرته لم تكن من الأسر المقربة إلى رجال السلطة والحكم، وإنما هي أسرة من عموم الأمة، كما يقال: ليس برجل علم ولا جاه، وإلا لحظي باهتمام كتب التاريخ والتراجم، غير أن المؤرخين يذهبون إلى أنه ولد بمراكش، فهو مغربي الولادة والاستقرار، وكذا الدراسة.

وعلى هذا فالحرالي مغربي مراكشي نشأة ودراسة، وفكرا وثقافة؛ لأن المغرب آنذاك، يعتبر العاصمة العلمية للغرب الإسلامي كله [5].

يقول الدكتور مُحَمَّد الخياطي: "وبقدر ما تأكدنا من ولادةالحرالي، بقدر ما بقي تاريخ ولادته مجهولا، إذ سكتت كتب التراجم عن تاريخ ولادته، وبقي في عالم المجهول، فلم يشر إليه أي واحد من المؤرخين، ولو بالتقريب، وقد

كان ابن الآبار أحق المترجمين بذكر تاريخ ولادته، لكن يبدو أن الحرالي لم يلفت إليه النظر إلا بعد نضجه واشتهار أمره...[6].

يقول العلامة مُحَمَّد بنشريفة في تقديمه لكتاب "تراث أبي الحسن الحرالي: "كان القرن السابع الهجري قرن امتحان شديد للمسلمين في الأندلس، فقد أخرجوا من ديارهم، وأجبروا على الجلاء عن أوطانهم ومدنهم، ومنها قرطبة واشبيلية وبلنسية ومرسية...وكان من جملة الجالين عن المدينةالأخيرة أسرة أبي الحسن علي ابن أحمد التَّجيبيالحَرالِّي، التي خرجت من مُرسية قبل تغلُّب النصارى عليها...[7].

3-2- شيوخه:لقي الحَرالِّي جملة من العلماء شرقا وغربا، إذ دخل الأندلس، وأخذ عن ابن خروف، وأبي الحسن ابن القطان، وابن الكتاني الفندلاوي، وحج فأخذ عن أبي عبد الله مُحَمَّد بن عمر القرطبي (ت 631هـ) إمام الحرم الشريف، قوانين فهم القرآن، حسبما نسب له ذلك بنفسه، ثم دخل مصر فسكن ببلبيس، ثم سكن طرابلس، وانتهى به المطاف إلى مدينة حماة السورية،وبها توفي سنة 638هـ/ 1241م[8].

3-3- تلاميذه:ومن أشهر تلامذته: مُحَمَّد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي، والقاضي أبو فارس بن كيحلا، والبوني صاحب شمس المعارف، ويحي بن زكرياء القرشي، وعبد المنعم بن مُحَمَّد الجزائري، وعبد الحق بن ربيع الأنصاري، وعبد العزيز بن عمر بن مخلوف، ومُحَمَّد بن الحسن التميمي القلعي المسمى بالأديب، ويحي بن زكرياءالسطيفي[9].

يقول ابن الطواح: "وأخبرني بعض الأصحاب الموثوق بهم، من العارفين السالكين، أن ابن أبي الدنيا الفقيه الطرابلسي، قرأ عليه علم الأصلين، والعربية والآداب، وكان يثني عليه كثيرا [10].

3-4- أوصافه وخلاله: وكان من أحلم الناس،حيث كان يضرب به المثل في ضبط النفس، وكظم الغيظ، ولا يقدر أحد أن يغضبه، ويذكر عن أبي الحسن الحرالِّيّ مشاركة قوية في الفضائل، وحسن السمت، وعرف بالورع والصلاح والزهد في الدنيا، والصبر على الشدائد، وعلى أذى الناس، وذكرت المصادر التي ترجمت له نماذج من حلمه وصبره على المسيئين له، سواء من عامة الناس، أو من أقرب الناس إليه، وكان يقابل كل ذلك بالصبر والاحتساب [11].

يقول عنه الذهبي: "وكان شيخنا مجد الدين التونسي يتغالى في تعظيم تفسيره،...وممن يعظمه، شيخنا شرف الدين ابن البارزي قاضي حماة"[12]. وهذه شهادة ثمينة جدا من الإمام الذهبي رحمهم الله تعالى.

وكان صوفيا له حزب من تأليفه يلازمه بعد صلاة الصبح، ولم يتخل عن ذلك حتى أثناء مرضه الذي مات به [13].

وكان من أوصافه الشفقة بالمذنبين، والرحمة بالعصاة، ف"كان إذا رأى من يزني يبكي عليه ويرحمه، وإذا رأى من يشرب يشفق عليه، ويجري عبرته، وكذلك من يسرق، وقد اعتبر الحكيم الترمذي هذه الأوصاف من أخلاق المتقين، ومن أوصاف العارفين بالله تعالى" [14].

هكذا أولياء الله تعالى مع أهل التقصير، ينظرون إليهم نظرة رحمة وشفقة، لا نظرة ازدراء وتنقيص.

3-5- كلام العلماء فيه:

قال عنه الغبريني: "وهو ممن جمع العلم والعمل، أما علمه رحمه الله، فإنه قد جمع فنون العلم بجملتها، واستولى على كليتها، أما علم الأصول، فأصول الدين وأصول الفقه هو أعلم الناس بها، وقد صنف فيها، وأما معقولات الحكماء، فهو أعلم الناس بالمنطق، وله فيه تصنيف سماه "بالمعقولات الأول"، وأما علم الطبيعيات والإلهيات فكان أعلم الناس بها...وأما علم التعاليم فكان اعلم الناس بها، منقوله ومعقوله..."[15].

وقال عنه الذهبي:وله تفسيرٌ فِيه أشياءُ عجيبةُ الأسلوب، ولَمْ أتحقَّقْ بَعْدُ ما كَانَ ينطوي عَلَيْهِ من العقدِ، غيرَ أَنَّهُ تكلَّمَ فِي علم الحروف والأعداد، وزَعَم أَنَّهُ استخرجَ علمَ وقتِ خروج الدَّجَّال، ووقتِ طلوعِ الشمس من مَغْرِبها، ويأجوج ومأجوج، وتكَلَّم ووَعَظَ بحماةَ، وصَّنف فِي المنطقِ، وفي الأسماءِ الحُسنى، وغير ذَلِكَ، وله عبارةٌ حلوة إلى الغاية، وفصاحةٌ وبيان، ورأيتُ شيخنا المجدَ التونسي يتَغالى فِي تفسيره، ورأيتُ غيرَ واحدٍ مُعَظِّمًا لَهُ، وجماعةً يتكلمونَ فِي عقيدتِه، وكانَ من أحلمِ الناس، بحيثُ يُضْرَبُ بِهِ المثل [16].

وذكره في الميزان فقال: صنّف «تفسيرا» وملأه بحقائق ونتائج فكره، وكان الرجل فلسفي التصوف، وزعم أنه يستخرج من علم الحروف وقت خروج الدجال ووقت طلوعالشمس من مغربها، وهذه علوم وتحديدات ما علمتها رسل الله، بل كل منهم حتى نوح عليه السّلام يتخوّف من الدجّال، وينذر أمته الدجال، وهذا نبينا ﷺ يقول: "إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه"، وهؤلاء الجهلة إخوته يدّعون معرفة متى يخرج. نسأل الله السلامة[17].

3-6- وفاته:قيل مات سنة سبع وثلاثين وستمائة بحماة، وأرخه ابن الأبار في شعبان سنة ثمان وثلاثين.

وذكر ابن الأبار أنه أقام ببلبيس مدّة، وذكر عنه أنه قال: إذا أذّن العصر أموت، فلما جاء العصر أجاب المؤذن ومات رحمه الله تعالى[18].

ويمكن القول أن وفاة الحرالي كانت في شعبان سنة 638هـ، جمعا بين آراء علماء زمانه ممن عاصروه، كالعز ابن عبد السلام وغيره.

المحور الثاني: علمه وآثاره:

1- مكانته العلمية:ولد بمراكش، وحج ولقي العلماء، وجال في البلاد، وشارك في عدة فنون، ومال إلى النظريات وعلم الكلام، وأقام بحماة، وبها مات.

وقد أطال الغبريني في الثناء عليه، وإيراد أخباره، حيث قال: "ما من علم إلا له فيه تصنيف. وأخذ العربية عن أبي الحسن بن خروف، وأبي الحجاج ابن نمرٍ، وحجَّ، ولَقِيَ العلماءَ، وجالَ فِي البلاد، وتغربَ، فرحل إلى المشرق وتصوف وَلهجَ بِالعَقْلِيَّاتِ، ومالَ إلى النظريات وعلمِ الكلام، ثم استوطن بجاية، وعاد إلى المشرق، فأخرج من مصر، وَسَكَنَ حَمَاةَ، وتوفي فيها"[19].

كان الحرالّي مشاركا في علوم كثيرة، منها: المنطق، والفلسفة، والرياضيات، وكان يقرأ كتاب "النجاة" للشيخ الرئيس ابن سينا "فيوضح منه ما يليق، ويقرره بأحسن طريق، ثم ينقضه ويوهنه"[20]. وله وضع على كتاب سيبويه سماه "النافع"، وكان عارفا بالفقه والحديث والأصلين، وله شرح على الموطأ، وكان يدرّس "التهذيب" للبراذعي، فيبين أنه مخالف للمدونة في كثير من مواضعه، وألف في الفرائض كتابا سماه الوافي، أما التفسير والتصوف فقد كان فيهما غزير التأليف، كما كان له إلمام كبير بعلم الحرف.

وقد برع الإمام الحرالي في عدة علوم، وصنف فيها، من أهمها:

-علم الأصلين: علم الفقه وعلم أصول الدين.

-علم معقولات الحكماء: ويدخل فيها المنطق وعلم الكلام.

-علم الطبيعيات والإلهيات: وقد اشتهر عنه أنه كان يدرس النجاة لا بن سينا، ويوضحه بأحسن بيان، ويقرره بأحسن طريقة، ثم ينتقده في الأخير، ويبين ما فيه من ضعف.

-علم الفقه: وكان على المذهب المالكي، فدرس التهذيب، وخالف المدونة في مواضع كثيرة، وبسبب ذلك انتقده علماء عصره.

-علم الفرائض: وقد ألف فيه كتابا سماه ب "الوافي". قال فيه الغبريني: "ما رأيت مثله في ذلك الفن" [21].

-علم التفسير: له فيه تأليف سماه "مفتاح الباب المقفل".

وملخص ما يمكن أن يقال عن علمه حسب تعبير المصادر أنه إذا تكلم في علم يعتقد المرء أنه لا يعرف غيره، وما من علم إلا وله فيه تصنيف وتأليف. [22].

لكن في الوقت الذي اشتهرت فيه كتب ابن عربي، ونشرت على نطاق واسع، لم تنشر كتب الحرالي، وبقيت مخطوطة ومجهولة، إلى أن أخذ الدكتور محمادي الخياطي على عاتقه جمع تراثه، لاسيما ما يتعلق منه بالتفسير، لما له من أهمية وخصوصية، وقد أحصى من مخطوطاته المتوفرة اثنا عشر عنواناً، بعد أن ذكر كل ما نسب له من مؤلفات، حيث قال: "والذي أمكن الحصول عليه من آثار الحرالي، والذي تناولته هذه الدراسة، هي الكتب الآتية"[23].

وسوف نذكرها كما ذكرها محمادي بن عبد السلام الخياطي، حيث قسمها إلى ثلاثة مجموعات:

*المجموعة الأولى تضم ثلاثة كتب، وهي كالتالي:

- الإيمان التام بحمد ﷺ.

- فتيا إصلاح العمل لانتظار الأجل.

- رسالة نصح عالم لمن قال ربي الله ثم استقام.

*المجموعة الثانية تضم كتابين:

- اللمحة في معرفة الحروف بمقتضى معانيها.

-تفهيم معاني الحروف.

*المجموعة الثالثة:

-سعد الواعي.

-حكم: أقوال حكمية وتأملات صوفية.

-آثاره الشعرية.

وبما أن تفسير الحرالي ما يزال مفقوداً، فإن معظمه متضمن في تفسير الإمام البقاعي المعروف ب"نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، وقد قام باستخلاصها من "نظم الدرر" المحقق الأستاذ محمادي الخياطي، ونشرها ضمن

الحلقة الأولى من "سلسلة تراث أبي الحسن الحرالي" التي قدم لها العلامة مُحَمَّد بنشريفة، وضم إليها ثلاث رسائل في أصول التفسير، هي:

1 – مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل.

2 – عروة المفتاح.

3 – التوشية والتوفية.

ورغم أن هذه الرسائل قد صدرت منذ أكثر من عقد، إلا أنها لم تنتشر بين الدارسين بما يعطيها حقها ومكانتها التأسيسية والإبداعية في أصول التفسير، ولعل هذا التعريف المتواضع،قد يفتح أفقاً لتتبع ما فيها من أصول وقواعد، يمكن أن تثري الدرس القرآني المعاصر، ولعل ما جمع من تفسيره يسهم في تعميق هذه الرؤى وتوضيحها.

2–جهوده في علم التفسير [24]

أما كتبه في التفسير فكان لها أهميتها وشهرتها في عصره، وقد اعتمد عليها المناوي في كتابه" التوقيف على مهمات التعاريف"، ويبدو أنها أثارت جدلاً في عصره حتى حرص العز ابن عبد السلام على الاطلاع عليها، وانتقدها لخلوها من التفسير بالمأثور، وما يزال تفسيره مفقوداً، لكن بعض نصوصه مضمنة في تفسير الإمام البقاعي" نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، وقد قام بجمعها من نظم الدرر المحقق الدكتور الخياطي، ونشرها ضمن الحلقة الأولى من سلسلة تراث أبي الحسن الحرالي، وضم إليها ثلاث رسائل في أصول التفسير، هي: "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل "و"عروة المفتاح "و"التوشية والتوفية"، وتقع الرسائل في مئة وعشرين صفحة تقريباً، وأتبعها بما جمع من نصوص تفسير الحرالي المضمنة في تفسير" نظم الدرر "حتى الجزء الرابع، قرابة أربع مئة صفحة، ليكون مجموع الرسائل والتفسير 632 صفحة.

ولقد تحدث الأستاذ الدكتور محقق أعمال الحرالي مُحَمَّد الخياطي في كتابه: "أبو الحسن الحرالي آثاره ومنهجه في التفسير باستفاضة كبيرة، وبتدقيق علمي، وبتحقيق وتوسع، عن هذا العلم الكبير، فيستحسن الرجوع إلى ما كتبه عن هذا الإمام، وعن معظم أعماله، وعن تراثه الذي تركه، وجدير بالذكر أن الدكتور مُحَمَّد الخياطي قد قسم كتابه إلى مقدمة وثلاثة أبواب، تعرض في الباب الأول لحياة الحرالي ابتداء، واتصاله ببعض صوفية عصره، وذكر بعض من أخذوا عنه.

أما الباب الثاني فقد خصصه للحديث عن اسمه واسم أبيه، وعن مكانتهوأسرته، ثم عرف بشيوخه ومكان دراسته، ثم تتبعه في ارتحاله واستقراره، ثم تحدث عن آثار الحرالي ذات الاتجاهات المتنوعة، في الفكر والمعرفة والتصوف بقسميه: النظري والعلمي.

وتناول في الباب الثالث منهج الحرالي في التفسير، معتمدا على كتبه الثلاثة: المفتاح، والعروة، والتوشية، مع نصوص من تفسيره المتضمنةفي تفسير البقاعي "نظم الدرر"

وقد تضمن هذا جانبين من التفسير:

الأول نظري: وحاول فيه الحرالي تأسيس قوانين في تفسير القرآن، ووضع ضوابط تساعد على تدبر القرآن وتفهمه، وتبين طريقة الوصول إلى فهمه فهما ذوقيا صوفيا، دون اعتماد مباشر على فهم المفسرين السابقين.

الثاني عملي: وفيه تناول القرآن آية آية، بل كلمة كلمة، وطبق فيه منهجه النظري، فكان يعتمد، بعد الإشارة إلى أسباب النزول والأحاديث المتعلقة بموضوع الآيات، على تفهمه وتذوقه للبيان العربي، وعلى ما يعطيه أصل اللغة واشتقاقها، وما تفهمه مناحي البلاغة العربية، في تنوع أساليبها وتعابيرها، بما يمكن تسميته بالمنهج البياني الصوفي.

وخاتمة بين فيها هدفه من تأليف الكتاب، ومستعرضا لبعض النتائج العلمية التي توصل لها من خلال دراسته لحياة هذا الإمام الجليل.

4- منهجه في تفسير القرآن العظيم:

وقد أثارت آراء الحرالي في علوم القرآن جدلاً واسعا في عصره، حتى حرص العلامة العز ابن عبد السلام على الإطّلاع عليها، وانتقدها لخلوها من التفسير بالمأثور في قصة مشهورة.

يقول العلامة الغبريني: "وممن لقي بالمشرق الإمام أبو عبد الله مُحَمَّد القرطبي، إمام الحرم الشريف، قال: تعلمنا عليه الفاتحة في نحو من ستة أشهر، وكان يلقي في التفسير قوانين في علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام، إلى أن من الله ببركات ومواهب لا تحصى، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعته، ولا خطر على قلب بشر، وعلى أحكام تلك القوانين وضع هو رحمه الله تعالى الكتاب المسمى "مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل" [25]. ويقول أيضا: "والشيخ رحمه الله سلك في تفسيره مسلك البيان والإيضاح، على نحو ما يقتضيه علم العربية وعلم تنقيح المعقول، وما يبقي وراء هذا، سوى علم الأسباب التي عند النزول، وعند الحاجة إليها، لا بد من ذكرها" [26].

يقول الأستاذ عبد الرحيم مرزوق في مقال له بعنوان: المنهج الدلالي، الأسس والمكونات: قراءة في تفسير الحرالي المراكشي: "ينبني تفسير الإمام الحرالّي المراكشي على جملة قوانين تختص بالتطرق إلى فهم القرآن، وتتنزل في فهم القرآن منزلة أصول الفقه في تفهم الأحكام، وتشكل هذه القوانين، نظرية فريدة، ومنهجا متميزا في التفسير الصوفي. ومن أبرز ظواهر هذا المنهج الاهتمام بدلالات ألفاظ القرآن على مستوى المعنى المعجمي، والتطور الدلالي، والمعنى السياقي، حتى جاز لنا نعته بالمنهج الدلالي"[27].

ويقول الأستاذ عبد الرحمن بن معاضة الشهري: "وبعد استعراض مضامين رسائل الحرالي الثلاث التي تناولت أصول فهم للقرآن –التي حققها الأستاذ الخياطي- يمكن أن نلحظ أن المنزع الصوفي لدى الحرالي لا يبدو بذاته هو المحرك لرسائله، بقدر ما هو البعد العلمي في تأطير الفهم العملي للقرآن، الذي يستل منه ما يخص سلوك الإنسان وعلاقته بالقرآن والتاريخ، فلئن كان التفسير الإشاري، قد وقع في إشكال القطيعة مع لغة النص والسياق، والتفسير قد أُسِر بقوانين اللغة والنحو، والتأويل قد استلب إلى علم الكلام والمتشابهات؛ فإن الحرالي يحاول في هذه الرسائل أن يقنن "فهم القرآن" كطريق للتعامل مع النص، لا يتجاوز التفسير ولا التأويل، إنما يلج إلى اللب والمقصد والجوهر، المتعلق بالإنسان، وترقيه في السلوك والأخلاق"[28].

يضيف الأستاذ الشهري أن ما يميز إنتاج الحرالي في التفسير –كما لاحظ ذلك محقق أعماله الأستاذ الخياطي- "أن له فيه اجتهادات خاصة، جعلته يشعر القارئ أنه يؤسس أو يضع قوانين علم جديد –لفهم القرآن- مثل القوانين التي وضعها أبو الأسود الدؤلي لعلم النحو، والإمام الشافعي لعلم أصول الفقه"، وقد صرح الحرالي بذلك، ونسب الأمر إلى شيخه أبي عبد الله القرطبي (ت631هـ) الذي تتلمذ عليه في المدينةالمنورة، وأفاد من دراسة

تفسير الفاتحة عليه كما يقول: "قوانين في التطرق إلى الفهم، تنزل في فهم القرآن منزلة أصول الفقه في فهم القرآن"[29].

ولعل ما كتبه الحرالي يمثل خطاً جديدا في الدرس القرآني، وتنبع أهميته من البعد التأسيسي، ومحاولة التقعيد لنمط من الفهم الذوقي العميق للقرآن، فهماً يتجاوز التقول الباطني، ولا يكون أسيراً للتفسير الظاهري، والذي ساعد الحرالي على تحقيق هذا الأمر، هو الرؤية الكلية للقرآن، لا في ذاته فقط، إنما في سياق علاقته التاريخية مع الكتب والأديان، وفي ضوء الصلة بين الله والإنسان...وهو بهذا يتجاوز التفسير الإشاري إلى مجالات معرفية أوسع وأرحب، ذلك أن التفسير الإشاري يعرّف بأنه: تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف[30]، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضاً، فهو التفسير الصوفي الذي يلحظ إشارات في الآيات، ولا يقف عند ظاهر الألفاظ فقط، ويختلف عن التفسير الباطني الذي يفترض معنى باطناً مقصوداً غير الظاهر؛ بأنه لا ينفي الظاهر بالضرورة، أو يدعي قصدية المعنى المشار إليه أصالة...[31].

إن النص القرآني حسب الإمام الحرالي هو نص متعال، ولغته إلهية، والكلمة فيه "مصطلح" ضمن بناء لغوي ومنهجي، ومعرفي صارم، ومن تم فإن ولوج عالم معاني القرآن عبر مفهوم "الترتيل" يقتضي التسلح بعُدة لغوية ومنهجية ومعرفية ذات بعد كوني من أجل اكتشاف بعض أسرار القرآن، على اعتبار أن عملية الاكتشاف القرآني هي عملية ممتدة ومتواصلة مادامت السماوات والأرض. نحن إذن إزاء رؤية "تأويلية" غير تفسيرية –بالمفهوم التقليدي للتفسير– تروم الاكتشاف والترقي بالمَلَكات الإنسانية في اتجاه تذوق المعاني الغيبية المرتبطة جدليا بحركة الإنسان في الوجود.وهذا مبحث عظيم في الدراسات الإسلامية، وجب دعمه وتطويره، وتعميم الاستفادة منه، في أفق إحداث نقلة فلسفية لو تحققت لأخرجت فكرنا المغربي والعربي الإسلامي عموما من مآزقه النظرية والعملية.

الخاتمة:

وخلاصة القول، فإن الإمام الحرالي يولي اهتماما بدلالات ألفاظ القرآن على مستوى المعنى المعجمي، والتطور الدلالي، والمعنى السياقي، كما أنه قد سعى في تفسيره إلى تعميق التلقي الذاتي للكلمات القرآنية، ذلك أن لغة القرآن أسمى من أن تدرك حقائق دلالاتها بواسطة قواعد العلوم فقط، وأنه لا يمكن الإحاطة بلغة القرآن إحاطتنا بلغة الإنسان...[32].

ويمكن القول:بأن المدرسة المغربية في التفسير ظهرت في هذا العصر، وظهورها وإن جاء متأخرا، إلا أنها جاءت ناضجة، استوعبت مدارس التفسير الإسلامي قبلها، وضمت اتجاهات المفسرين، واستطاعت أن تجدد في طريقة التفسير، وأن تبتكر منهجا جديدا، وتكون لنفسها طابعا مستقلا، يجمع بين المدرسة التقليدية التفسير بالمأثور_ وبين المدرسة العقلية_ التفسير بالرأي المقبول المعتمدة على سائر العلوم لفهم النصوص القرآنية في معانيها العميقة.

الهوامش وقائمة المراجع

1– ممن ترجموا للإمام الحَرالّي: الغبريني في "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"، ومُحَمَّد مخلوف في "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، والعباس بن إبراهيم السملالي في "الإعلام بمن حل مراكشوأغمات من الأعلام"، وابن الطواح في "سبك المقال لفك العِقال"، والإمام الذهبي في "سِير أعلام النبلاء"، وأحمد المقري في "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب".

2-الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ (المتوفى: 638هـ)، آثاره ومنهجه في التفسير، تأليف الدكتورمحمادي بن عبد السلام الخياطي، أستاذ بكلية أصول الدين تطوان، أصدره مركز الدراسات القرآنية، التابع للرابطة المحمدية للعلماء، الطبعة: الأولى، 1432هـ - 2011م. [ص: 115].

3عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، لأبي العباس أحمد الغبريني، تحقيق عادل نويهص، 1969م، بيروت، لبنان، [ص: 143].

4-الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ، محمادي بن عبد السلام الخياطي، [ص: 46-47].

5-ينظر: معلمة المغرب، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1419هـ، 1998م، [ص: 3364].

6-الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ، محمادي بن عبد السلام الخياطي، [ص: 56].

7-الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ، محمادي بن عبد السلام الخياطي، [ص: 56].

8- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، لأبي العباس بن إبراهيم، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1980م، [102/9].

9-ينظر: معلمة المغرب، [ص: 3364].

10- ينظر: الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ، محمادي بن عبد السلام الخياطي، [ص: 53].

11- ينظر: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، لأبي العباس أحمد الغبريني [147-148].

12-سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، [46/23].

13-ينظر: معلمة المغرب، [ص: 3364].

14-الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ، محمادي بن عبد السلام الخياطي، [ص: 86].

15-عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية [ص: 144-145].

16-سير أعلام النبلاء [46/23].

17-ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبد الله الذهبي، ط 1، 1325هـ، [218/2].

18-الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ، محمادي بن عبد السلام الخياطي، [ص: 110].

19-عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، لأبي العباس أحمد الغبريني،[ص: 143].

20-الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، لأبي العباس بن إبراهيم، [102-103].

21-عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، لأبي العباس أحمد الغبريني،[ص: 146].

22-ينظر: معلمةالمغرب، [ص: 3364].

23-الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ، محمادي بن عبد السلام الخياطي، [ص: 134].

24- تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، للدكتور عبدالرحمن حللي، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، السنة 1997م.

25- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، لأبي العباس أحمد الغبريني، [ص:144].

26-المصدر السابق [ص: 14].

27- المنهج الدلالي: الأسس والمكونات: قراءة في تفسير الحرالي المراكشي،عبد الرحيم مرزوق، مجلة الإحياء، الرابطة المحمديةللعلماء. عدد 28، 2008، [ص: 134-135].

28- رسائل أبي الحسن الحرالي في قوانين فهم القرآن، مقال عبد الرحمن بن معاضة الشهري، نشر في موقعه (29-10-2010) http://www.alukah.net/Web/alshehry.

29- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، لأبي العباس أحمد الغبريني، [ص:144].

30- ينظر: التفسير والمفسرون، للدكتور مُحَمَّد حسين الذهبي، دار الحديث، 1426هـ، 2005م، [ج330/2].

31-رسائل أبي الحسن الحرالي في قوانين فهم القرآن، مقال عبد الرحمن بن معاضة الشهري، نشر في موقعه (29-10-2010) http://www.alukah.net/Web/alshehry.

32مقال بميثاق الرابطةللباحث جمال باميشر في يوم: 07 - 11 – 2011م.

قائمة المراجع:

- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، لأبي العباس بن إبراهيم، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1980م.
- التفسير والمفسرون، للدكتور مُحَمَّد حسين الذهبي، دار الحديث، 1426هـ، 2005م.
- الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ (المتوفى: 638هـ)، آثاره ومنهجه في التفسير، تأليف الدكتورمحمادي بن عبد السلام الخياطي، أستاذ بكلية أصول الدين تطوان، أصدره مركز الدراسات القرآنية، التابع للرابطة المحمدية للعلماء، الطبعة: الأولى، 1432هـ - 2011م.
- تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، للدكتور عبدالرحمن حللي، مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء، السنة: 1997م.
- رسائل أبي الحسن الحرالي في قوانين فهم القرآن، مقال عبد الرحمن بن معاضة الشهري، نشر في موقعه (29-10-2010 http://www.alukah.net/Web/alshehry.
- سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، دمشق.
- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، لأبي العباس أحمد الغبريني، تحقيق عادل نويهص، 1969م، بيروت، لبنان.
- معلمة المغرب، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1419هـ، 1998م.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبد الله الذهبي، ط 1، 1325هـ.